الاتجاه الإسلامي في أدب د. أحمـ

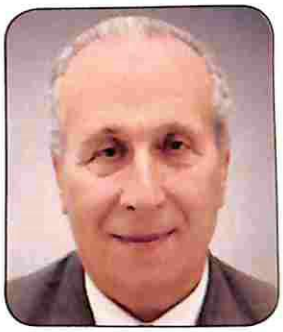

د. سعد أبو الرضا - مصر

الدكتور أحمد هيكل هو ذلك الرجل الذي وهبه الله من المزايا والأخلاق قلما يجتمع في سواه: من أدب جم، وحس إسلامي قوي، وإخلاص يفيض حبا ورعاية على كل من يتصلون به.. هكذا يتحدث المتحدثون عنه... عندما كان طالبا، وأستاذا ومستشارا ثقافيا لمصر في مدريد، وعميدا لكلية دار العلوم، ثم وزيرا للثقافة في مصر... من ثم فما وجدت أحدا يصدق عليه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم "ألسنة الخلق أقلام الحق" مثل هذا الرجل..

وأعدُّ هذا الحس الإسلامي القوي الذي يتجلى فيه، نفحة من نفحات الله له، رباه عليه والده منذ أن كان يصحبه وهو صغير معه إلى المسجد[1]، وقد تجلى ذلك فيما بعد في أقواله وأفعاله:

فهو من أوائل من أسهموا في تأسيس جمعية رابطة الأدب الإسلامي، عندما كان في مقدمة من شاركوا في أول مؤتمر للأدب الإسلامي في مصر الذي انعقد بجامعة الإسكندرية بالاشتراك مع رابطة الأدب الإسلامي العالمية، ومن هذا المؤتمر أخذت مبادئ هذه الرابطة تنتشر في ربوع مصر داعية إلى الكلمة الجميلة المعبرة، في ضوء التصور الإسلامي للإنسان والكون والحياة، حاثة على النماذج الأدبية الفنية شعرا وقصة ومسرحية ومقالة.. إرشادا لشبابنا، وهداية لأمتنا، وحفاظا على لغتنا وهويتنا في عصر أخذت تعصف فيه العولمة بكل شيء..

والأستاذ الدكتور أحمد هيكل من أوائل من ألقوا محاضرات عن الإسلام وحضارته باللغة الأسبانية في إسبانيا عندما كان مستشارا ثقافيا لمصر في مدريد، وقد حضرت ملكة إسبانيا هذه المحاضرات، وأعجبت بالإسلام وحضارته[2]، وبجهوده وتحت رئاسته تم انعقاد المؤتمر الإسلامي المسيحي في إسبانيا في دورتين متعاقبتين، وتكوين جمعية الصداقة المسيحية الإسلامية سنة ١٩٧٤م، وقد كان من أهم الأهداف والتوصيات التي بادرت إليها تأكيد الحقوق الوطنية والإنسانية للشعب الفلسطيني مع اعتبار منظمة التحرير الممثل الشرعي الوحيد لهذا الشعب، وتأكيد عروبة القدس، ورفض محاولات التهويد والتقسيم والتدويل، وإدانة الاعتداءات التي تقوم بها سلطات الاحتلال الإسرائيلي على الشعوب وعلى المقدسات المسيحية والإسلامية، وبخاصة المسجد الأقصى، والمطالبة بإطلاق سراح جميع المعتقلين.

ـــد هيكل وفكره

أحمد هيكل

ولقد كان من أهم إنجازات جمعية الصداقة المسيحية بالإضافة إلى ما سبق أنها سعت لدى السلطات الإسبانية وبذلت جهودا ضخمة من أجل استعادة مسجد قرطبة الكبير الذي كان أكبر المساجد وأقدمها في العصر الإسلامي في الأندلس، والذي كان الإسبان قد حولوه إلى كنيسة منذ القرن الثالث عشر بعد سقوط قرطبة سنة ١٢٢٦هـ، وهذا الجزء قد عاد مسجدا يؤدي فيه المسلمون شعائرهم، وتدوي معها في آفاق قرطبة آيات القرآن الكريم وتكبيرات المصلين[٣].

وهذا الحس الإسلامي القوي يتجلى في أستاذنا الدكتور أحمد هيكل العالم الباحث المتخصص في الأدب ودراساته ونقده، كما يتجلى في شعره، فهو الشاعر الفنان الذي كان الشعر حبه الأول الذي اتسع لنبض قلبه، وخفق شعوره، ودفء إفضائه.

وقد كان من أوائل كبار الكتاب والباحثين الذين اهتموا بكشف أثر الإسلام في الأدب ؛ ففي كتابه " تطور الأدب الحديث في مصر من أوائل القرن التاسع عشر إلى قيام الحرب العالمية الكبرى الثانية "أبرز الاتجاه الإسلامي في شعر المحافظين فيما سماه:"الاتجاه المحافظ البياني"، وهو عنوان خاص بالدكتور أحمد هيكل في كل معالجاته للأدب بصفة عامة في معظم كتبه تقريبا، ومنها كتابه " في الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة" أيضا، وقد أشار إلى ملامح خاصة بهذا الاتجاه، توصل إليها باجتهاده وبحثه، لعل من أهمها التزام أصحاب هذا الاتجاه من الأدباء بالمحافظة على الأصول الفنية، ورعاية السمات البيانية، وتجلي القيم الأخلاقية، والارتباط بالتراث الإسلامي العربي، ولذلك فقد تحدث في كتابه الأدب الحديث السابق عن :"المحافظون بين الإسلاميات والتراثيات والمناسبات[٤]".

ولا يظنن ظان أن الرجل كان بعيدا عن الجديد ومتغيراته، كلا، فهو إذا كان قد تحدث في هذا الكتاب عن كل فنون الأدب الحديث : شعرا وقصة ومسرحية ومقالة وخطابة، فقد خص فني الرواية والمسرحية بكتاب آخر بالإضافة إلى ما سبق هو :"الأدب القصصي والمسرحي في مصر من أعقاب ثورة١٩إلى قيام الحرب الكبرى الثانية" فصل فيه كثيرا من قضايا هذين الفنين في أدبنا الحديث لأهميتهما، وذلك عندما كثرت نماذجهما وتنوعت، وأصبحت قابلة للتصنيف والدراسة والتقويم[٥]، وقد أشار في تمهيد هذا الكتاب إلى أن الأزهر كان مهما في نمو الحياة الثقافية، وازدهار هذين الفنين، خاصة بعد إصلاحه وإنشاء كلياته[٦].

وفي حديثه عن تطور الأدب العربي على مر العصور في كتابه "في اللغة والأدب" ينسب ازدهار الأدب لاستجابته للتطور والتفتح للتجدد، ومن ثم يكشف أثر الإسلام في

من اليمين: الأمراني، الهويمل، هيكل، عويس، هدارة، أبو صالح

تطور هذا الأدب في عصر صدر الإسلام، مبينا أن لغة الأدب بفضل الإسلام قد أصبحت أكثر سماحة وأنصع فصاحة، كما صارت روحه أدنى إلى الإنسانية، وأقرب إلى المدنية، بفضل ما أسبغته روح القرآن الكريم والبلاغة النبوية على الأدب، وقد برز في هذا الأدب قيم السلام والوئام محل قيم الصراع والخصام، وقامت فيه تعاليم الحب وطهارة الوجدان، فمثل المدنية العالية، والإنسانية الرفيعة[٧].

ود. أحمد هيكل من دعاة الاعتدال، ففي الوقت الذي يحثنا فيه على التطور والتجديد في الأدب والإفادة مما عند الآخر، يؤكد على أهمية قتل التراث بحثا لنؤصل لأدبنا وفكرنا المعاصر، وهكذا تقوم النهضة والتجديد من وجهة نظره على دعامتين هما التراث والانفتاح على الجديد[٨].

كما تجلى حسه الإسلامي القوي في موقفه من د.طه حسين، فبرغم أن طه حسين هو الذي رشحه للبعثة إلى إسبانيا، لكن ذلك لم يمنعه من أن يكشف تناقضه في حديثه عن القرآن الكريم، من ثم ففي الوقت الذي أثنى فيه على ما رفد به طه حسين تاريخ الأدب في كتابه "في الشعر الجاهلي" الذي عدله إلى "في الأدب الجاهلي"، مشيرا إلى ما قدمه من منهج جديد، وروح علمية في بحث تاريخ الأدب، كما يسجل له مقولته "إن القرآن الكريم نص ثابت لا شك فيه" لكنه يأخذ عليه تورطه وتجاوزه بالنسبة للقرآن الكريم عندما شكك في حديث القرآن عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، كاشفا تناقض طه حسين بسبب حماسته نحو منهج الشك لديكارت[٩].

وقد تجلى حسه الإسلامي قويا في شعره أيضا، كما كان قويا في كتبه ودراساته الأدبية والنقدية كما أشرت سابقا، فانظر مثلا في ديوانه "أصداء الناي" الذي كان ديوانه الأول من دواوينه الثلاثة "وقد تباعدت فترات إنتاجه : فالبدايات في أواخر الأربعينيات، والنهايات في أواخر السبعينيات". لكن الحس الإسلامي القوي يتجاوز كونه واضحا في عنوان القسم الرابع من أقسام هذا الديوان الستة وهو "إسلاميات". ليتضح جليا في بقية الأقسام الأخرى، وقد اقترن ذلك بكشفه عن حيوية الشاعر أحمد هيكل، واتساع نشاطاته وجهوده داخليا وخارجيا، وذاتيا واجتماعيا وإنسانيا، فما من حادث مهم مر بالمجتمع أو وقع للوطن، أو نزل بالأمة، بل بالعالم إلا رصده في شعره في هذا الديوان رصدا فنيا إنسانيا، وكأني به كان يستشعر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم " من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم ".

أما كيف تجلى ذلك فنيا فأمر لا يتسع له الوقت هنا، لكنني فقط أشير إلى ظاهرة دلالية كاشفة، إذ يتضح في هذا الديوان حقل دلالي إسلامي قد شكلته مفردات من القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف والتراث العربي، مثل: (فالق الإصباح، ثواب الله، الكعبة، الحراب، إلهي، الله، العقيدة، البيت الحرام، نبي الهدى، النور، الفرقان)...وغير ذلك، وقد ارتبطت هذه المفردات بمصاحبات لغوية تجعل مساحة هذا الديوان تمتد وتتسع لتشمل أرجاء الحياة في الداخل والخارج التي شهدت نشاطات د. أحمد هيكل، وكانت شاهدة على حسه الإسلامي القوي، وما

يتمتع به من رقة المشاعر. وذوق الفنان. وخلق العالم. خاصة عندما تتكرر هذه المفردات في سياقات مختلفة. ومواضع عديدة من هذا الديوان. مرتبطة بتعدد الأماكن التي اتصل بها نشاطه.. رحمة الله عليه.

وثمة ظاهرة دلالية أخرى في هذا الديوان متصلة بما سبق. وهي شيوع وانتشار لفظة "حب" ومشتقاتها فيه انتشارا يرتبط بكل أفعاله وأقواله وصوره فيه. مما يجعلني أستحضر بالنسبة لشخصيته حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم " أقربكم إليّ مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا. الموطؤون أكنافا.الذين يألفون ويؤلفون" صدق رسول الله. وأحسن أستاذنا الدكتور أحمد هيكل.. فقد كان طالبا جادا نشطا... وكان أستاذا ومعلما مخلصا لنا نحن طلابه ومريديه. وأحسن يوم كان وزيرا يقود ثقافة مصر والأمة إلى بر السلامة والأمان. والله أسأل أن يكون مستقره في جنات النعيم ■

الهوامش:

(١) انظر د. أحمد هيكل. سنوات وذكريات : سيرة ذاتية. الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة. ١٩٩٧. ص ١١.

(٢) انظر السابق نفسه. ص ١٣١. وكذلك انظر في الأدب واللغة ". مكتبة الأسرة. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة. ١٩٩٨. ص٨.

(٣) سنوات وذكريات. ص١٣٤-١٣٥.

(٤) د. أحمد هيكل : تطور الأدب الحديث في مصر من أوائل القرن التاسع عشر إلى قيام الحرب الكبرى الثانية. ط٥. دار المعارف. ١٩٨٧. القاهرة. ص١١١ وما بعدها. وكذلك ص١٣٣.

(٥) د. أحمد هيكل: الأدب القصصي والمسرحي في مصر من أعقاب ثورة سنة ١٩١٩ إلى قيام الحرب الكبرى الثانية. دار المعارف. ط٤. ١٩٨٣. القاهرة. ص١٠.

(٦) انظر السابق نفسه. ص١٨.

(٧) انظر د. أحمد هيكل "في الأدب واللغة" مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٨. مكتبة الأسرة. الهيئة العامة للكتاب مقال : الأدب والتجديد. ص٢٧.

(٨) انظر السابق نفسه. ص ٣١.

(٩) انظر السابق نفسه مقال :"كتاب طه حسين في الشعر الجاهلي.. ماذا بقي منه. ص٧٢.

(١٠) د. أحمد هيكل. ديوان أصداء الناي ١٩٨٠. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة. (توفي د.أحمد هيكل في أكتوبر سنة ٢٠٠٦).

رسالة إلى ابنتي عزة

شعر: د . أحمد هيكل

إليك يا صغيرتي السلام والعناق والقبل
تطيرُ في مُعطَّر الأثير
لكي تَضُمَّ بالحنان مهدك الصغير
كما تَضُمَّ مهجةُ الربيع سوسنهْ
إليك من أبيك فيض حب
إليك ذوب قلب..!!
وبعد يا صغيرتي أريد أن أقول ألف شيء
وأنت يا بُنيتي صغيره
وكيف تفهمين ما أقول؟
وكيف تعذرين لو بكيتُ أو شكوت؟!
بأن للكبار أدمعاً كأدمع الصغار
وأن للرجال حَنَّةً كحنَّة الفطيم
ولوعةَ كلوعة اليتيمْ؟!

* * *

ورغم ذاك يا بُنيتي
أريد أن أقول أيّ شيءْ
أريد أن أصيح، أن أنوحْ!!
وكلُّ من سواكِ سوف يُنكر الحديثْ
ويكثر الملامْ
ويخلقُ الفروضَ والشروح للكلامْ

* * *